

زاد المسير في علم التفسير

ابن الجوزي

سورة مريم

وهي مكية بإجماعهم من غير خلاف علمناه. وقال مقاتل: هي مكية غير سجدتها، فانها مدنية. وقال هبة الله المفسر: هي مكية غير آيتين منها، قوله: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } والتي تليها [مريم: 59 / 60].

بسم الله الرحمن الرحيم.

لَا يَهَيِّزُ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرًا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ لِعَظْمٍ مِّنِّي وَ شَتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ لِمَوَالِيٍّ مِّنْ وَرَائِي وَكَانَتِ مُرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ جَعَلَهُ رَبُّ رَضِيًّا {

قوله تعالى: { كهيعص } قرأ ابن كثير: كهيعص ذكر بفتح الهاء والياء وتبيين الدال التي في هجاء صاد. وقرأ ابو عمرو: كهيعص بكسر الهاء وفتح الياء ويدغم الدال في الذال، وكان نافع بالهاء يلفظ والياء بين الكسر والفتح، ولا يدغم الدال التي في هجاء صاد في الذال من ذكر. وقرأ أبو بكر عن عاصم، والكسائي، بكسر الهاء والياء، إلا أن الكسائي لا يبين الدال، وعاصم بينها. وقرأ ابن عامر، وحمزة، بفتح الهاء وكسر الياء ويدغمان. وقرأ أبي بن كعب: كهيعص برفع الهاء وفتح الياء. وقد ذكرنا في أول البقرة ما يشتمل على بيان هذا الجنس. وقد خص المفسرون هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال. أحدها: أنها حروف من أسماء الله تعالى، قاله الأكثرون. ثم اختلف هؤلاء في الكاف من أي اسم هو، على أربعة أقوال. أحدها: أنه من اسم الله الكبير. والثاني: من الكريم.

والثالث: من الكافي، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس. والرابع: أنه من الملك، قاله محمد بن كعب. فأما الهاء، فكلهم قالوا: هي من اسمه الهادي، إلا القرظي فانه قال: من اسمه الله. وأما الياء، ففيها ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها من حكيم.

والثاني: من رحيم.

والثالث: من أمين، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس فأما العين ففيها أربعة أقوال.

أحدها: أنها من حكيم.

والثاني: من رحيم.

والثالث: من أمين روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس. فأما العين، ففيها أربعة أقوال. أحدها: أنها من عليم. والثاني: من عالم. والثالث: من عزيز، رواها أيضا سعيد بن جبير عن ابن عباس. والرابع: أنها من عدل، قاله الضحاك. وأما الصاد، ففيها ثلاثة أقوال. أحدها: أنها من صادق. والثاني: من صدوق، رواهما سعيد بن جبير أيضا عن ابن عباس. والثالث: من الصمد، قاله محمد بن كعب. والقول الثاني: أن كهيعص قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وروي عن علي عليه السلام أنه قال: هو اسم من أسماء الله تعالى وروي عنه أنه كان يقول يا كهيعص اغفر لي قال الزجاج: والقسم بهذا والدعاء لا يدل على أنه اسم واحد، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله فدعا بها، فكأنه قال: يا كافي، يا هادي، يا عالم، يا صادق، وإذا أقسم بها، فكأنه قال: والكافي الهادي العالم الصادق، واسكنت هذه الحروف لأنها حروف تهج، النية فيها الوقف. والثالث: أنه اسم للسورة قاله الحسن ومجاهد. والرابع: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. فان قيل: لم قالوا: هايا، ولم يقولوا في الكاف: كا، وفي العين: عا، وفي الصاد: صا، لتتفق المباني كما اتفقت العلل؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: حروف المعجم التسعة والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان، كما يستقبحون ذلك في خطبهم ورسائلهم، فيغيرون بعض الكلم ليختلف الوزن وتتغير المباني، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع. قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ} قال الزجاج: الذكر مرفوع بالمضمر، المعنى: هذا الذي نتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده. قال الفراء: وفي الكلام تقديم وتأخير؛ المعنى: ذكر ربك عبده بالرحمة، وزكريا في موضع نصب. قوله تعالى: {إِذْ تَادَى رَبُّهُ} النداء هاهنا بمعنى الدعاء. وفي علة إخفائه لذلك ثلاثة أقوال. أحدها: ليبعد عن الرياء، قاله ابن جريج. والثاني: لئلا يقول الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر، قاله مقاتل.

والثالث: لئلا يعاديه بنو عمه، ويظنوا أنه كرهه أن يلوا مكانه بعده، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وهذه القصة تدل على أن المستحب إسرار الدعاء، ومنه الحديث: إنكم لا تدعون أصم. قوله تعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ لِعَظْمٍ مِّنِّي } وقرأ معاذ القاريء، والضحاك: وهن بضم الهاء، أي: ضعف. قال الفراء: وغيره: وهن العظم، ووهن، بفتح الهاء وكسرهما؛ والمستقبل على الحالين كليهما: يهن. وأراد أن قوة عظامه قد ذهبت لكبره؛ وإنما خص العظم، لأنه الأصل في التركيب. وقال قتادة: شكا ذهاب أضراسه.

قوله تعالى: { وَ شَتَّعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا } يعني: انتشر الشيب فيه، كما ينتشر شعاع النار في الحطب، وهذا من أحسن الاستعارات. { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ } أي: بدعائي إياك { رَبِّ شَقِيًّا } أي: لم أكن أتعب بالدعاء ثم أخيب، لأنك قد عودتني الإجابة؛ يقال: شقي فلان بكذا، إذا تعب بسببه، ولم ينل مراده. قوله تعالى: { وَإِنِّي خِفْتُ لِمَوَالِي } يعني: الذين يلونه في النسب وهم بنو العم والعصبة { مِن وَرَائِي } أي: من بعد موتي.

وفي ما خافهم عليه قولان. أحدهما: أنه خاف أن يرثوه، قاله ابن عباس: فان اعترض عليه معترض، فقال: كيف يجوز لنبي أن ينفس على قراباته بالحقوق المفروضة لهم بعد موته؟ فعنه جوابان.

أحدهما: أنه لما كان نبيا، والنبي لا يورث، خاف أن يرثوا ماله فيأخذوا مالا يجوز لهم.

والثاني: أنه غلب عليه طبع البشر، فأحب أن يتولى ماله ولده، ذكرهما ابن الأنباري.

قلت: وبيان هذا أنه لا بد أن يتولى ماله وإن ولم يكن ميراثا، فأحب أن يتولاه ولده.

والقول الثاني: أنه خاف تضييعهم للدين ونبذهم إياه، ذكره جماعة من المفسرين.

وقرأ عثمان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وابن جبير، ومجاهد، وابن أبي شريح عن الكسائي: خفت بفتح الخاء وتشديد الفاء؛ على معنى قلت فعلى هذا يكون إنما خاف على علمه ونبوته ألا يورثا فيموت العلم. وأسكن ابن شهاب الزهري ياء الموالي.

قوله تعالى: { مِن وَرَائِي } أسكن الجمهور أسكن الجمهور هذه الياء، وفتحها ابن كثير في رواية قبل. وروى عنه شبل: وراي مثل عصاي.

قوله تعالى: { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ } أي: من عندك { وَوَلِيًّا } أي: ولدا صالحا يتولاني.

قوله تعالى: { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: يرثني ويرث برفعهما. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: يرثني ويرث بالجزم فيهما. قال أبو عبيدة: من قرأ بالرفع، فهو على الصفة للولي؛ فالمعنى: هب لي وليا وارثا، ومن جزم، فعلى الشرط والجزاء، كقولك: ان وهبته إن وهبته لي ورثني.

وفي المراد بهذا الميرث أربعة اقوال.

أحدها: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال أبو صالح.

والثاني: يرثني العلم، ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العلم دون الملك، وهذا مروى عن ابن عباس أيضا.

والثالث: يرثني نبوتي وعلمي، ويرث من آل يعقوب النبوة، أيضا قاله الحسن.

والرابع: يرثني النبوة ويرث من آل يعقوب الأخلاق، قاله عطاء. قال مجاهد:

كان زكريا من ذرية يعقوب، وزعم الكلبي أن آل يعقوب كانوا أخواله، وأنه ليس بيعقوب أبي يوسف. وقال مقاتل: هو يعقوب بن ماثان، وكان يعقوب هذا وعمران - أبو مريم - أخوين.

والصحيح: أنه لم يرد ميراث المال لوجوه.

أحدها: أنه قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة.

والثاني: أنه لا يجوز أن يتأسف نبي الله على مصير ماله بعد موته إذا وصل إلى وراثته المستحق له شرعا.

والثالث: أنه لم يكن ذا مال. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن زكريا كان نجارا.

قوله تعالى: { وَجَعَلُهُ رَبًّا رَضِيًّا } قال اللغويون: أي: مرضيا، فصرف عن مفعول إلى فاعيل، كما قالوا: مقتول وقتيل.

{ يَرْكَبِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ سَمِيحٍ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ هُرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئُ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا }

قوله تعالى: {رَضِيًّا يَزْكُرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ} في الكلام إضمار، تقديره: فاستجاب الله له فقال: يا زكريا إنا نبشرك. وقرأ حمزة: نبشرك بالتخفيف. وقد شرحنا هذا في [آل عمران: 39].

قوله تعالى: {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: لم يسم يحيى قبله، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وقتادة، وابن زيد، والأكثر.

فإن اعترض معترض، فقال: ما وجه المدحة باسم لم يسم به أحد قبله، ونرى كثيرا من الأسماء لم يسبق اليها؟ فالجواب: أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه، فسماه باسم لم يسبق اليه.

والثاني: لم تلد العواقر مثله ولدا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: لم نجعل له نظيرا.

والثالث: لم نجعل له من قبل مثلا وشبها، قاله مجاهد. فعلى هذا يكون عدم الشبه من حيث أنه لم يعص ولم يهجم بمعصية. وما بعد هذا مفسر في [آل عمران: 39] إلى قوله: {وَكَاثِبٍ مُّهْرَاتٍ عَاقِرًا}.

وفي معنى كانت قولان.

أحدهما: انه توكيد للكلام، فالمعنى: وهي عاقرة، كقوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} [آل عمران: 110] أي: أنتم.

والثاني: أنها كانت منذ كانت عاقرا، لم يحدث ذلك بها، ذكرهما ابن الأنباري، واختار الأول.

قوله تعالى: {وَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَكَبَرِ عَيْتِي} قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: عتيا وبكيا [مريم: 58] وصليا [مريم: 70] بضم أوائلها. وقرأ حمزة، والكسائي، بكسر أوائلها، وافقهما حفص عن عاصم، إلا في قوله: بكيا فانه ضم أوله. وقرأ ابن عباس،

ومجاهد: عسيا بالسين قال مجاهد: عتيا هو قحول العظم. وقال ابن قتيبة: أي يبسا؛ يقال: عتا وعسا بمعنى واحد. قال الزجاج: كل شيء انتهى، فقد عتا يعتو عتيا، وعتوا، وعسوا، وعسيا.

قوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكَ} أي: الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكبر {قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} أي: خلق يحيى علي سهل. معاذ القاري، وعاصم الجحدري: هين بإسكان الياء. {وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ} أي: أوجدتك. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: خلقتك. وقرأ حمزة، والكسائي:

خلقناك بالنون والألف. {وَلَمْ تَكْ شَيْئًا} المعنى: فخلق الولد، كخلقتك. وما بعد هذا مفسر في [آل عمران: 39] إلى قوله: {ثَلَّثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} قال

الزجاج: سويًا منصوب علي الحال، والمعنى: تمنع عن الكلام وأنت سوي. قال ابن قتيبة: أي: سليما غير أخرس.

قوله تعالى: { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ } وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها أمراة { مِنْ لِمَجْرَابٍ } أي: من مصلاه وقد ذكرناه في [آل عمران: 39]. قوله تعالى: { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } فيه قولان.

أحدهما: أنه كتب إليهم في كتاب، قاله ابن عباس. والثاني: أوما برأسه وبديبه، قاله مجاهد.

قوله تعالى: { أَنْ سَبَّحُوا } أي: صلوا { بُكْرَةً وَعَشِيًّا } قد شرحناه في [آل عمران: 39] والمعنى: أنه كان يخرج إلى قومه فيأمرهم بالصلاة بكرة وعشيا، فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة إشارة.

{ يَبْحَثُ حَيًّا } * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا {

قوله تعالى: { وَلَا يَحْيَى } قال الزجاج: المعنى: فوهبنا له يحيى، وقلنا له: يا يحيى { خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأْتِينَاهُ } يعني: التوراة، وكان مأمورا بالتمسك بها. وقال ابن الأنباري: المعنى: اقبل كتب الله كلها إيمانا بها واستعمالا لأحكامها. وقد شرحنا في [البقرة: 63] معنى قوله: { بِقُوَّةٍ }.

قوله تعالى: { وَأْتِينَاهُ } فيه أربعة أقوال. أحدها: أنه الفهم، قاله مجاهد.

والثاني: اللب، قاله الحسن، وعكرمة.

والثالث: العلم، قاله ابن السائب.

والرابع: حفظ التوراة وعلمها، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد زدنا هذا شرحاً في سورة [يوسف: 23] وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن من قبل أن يحتلم، فهو ممن أوتي الحكم صيباً.

فأما قوله: { صَبِيًّا } ففي سنة يوم أوتي الحكم قولان.

أحدهما: أنه سبع سنين، رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والثاني: ثلاث سنين، قاله قتادة، ومقاتل.

قوله تعالى: { وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا } قال الزجاج: أي: وآتيناه حنانا. وقال ابن الأنباري: المعنى: وجعلناه حنانا لأهل زمانه.

وفي الحنان ستة أقوال.

أحدها: أنه الرحمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والفراء، وأبو عبيدة، وأنشد:

تحن علي هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

قال: وعامة ما يستعمل في المنطق على لفظ الاثنيين، قال طرفة:
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

قال ابن قتيبة: ومنه يقال: تحن علي، وأصله من حنين الناقة على ولدها.
وقال ابن الأنباري: لم يختلف اللغويون أن الحنان: الرحمة، والمعنى: فعلنا
ذلك رحمة لأبويه، وتزكية له. والثاني: أنه التعطف من ربه عليه، قاله مجاهد.
والثالث: أنه اللين، قاله سعيد بن جبیر. والرابع: البركة، وروي عن ابن جبیر
أيضاً. والخامس: المحبة، قاله عكرمة، وابن زيد. والسادس: التعظيم، قاله
عطاء بن أبي رباح.

وفي قوله: { وَزَكَاةً } أربعة أقوال.

أحدها: أنها العمل الصالح، قاله الضحاك، وقتادة.

والثاني: أن معنى الزكاة: الصدقة، فالتقدير: إن الله تعالى جعله صدقة تصدق
بها على أبويه، قاله ابن السائب.

والثالث: أن الزكاة: التطهير، قاله الزجاج.

والرابع: أن الزكاة: الزيادة، فالمعنى: وأتيناها زيادة في الخير على ما وصف
وذكر، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: { وَكَانَ تَقِيًّا } قال ابن عباس: جعلته يتقيني، لا يعدل بي غيري.

قوله تعالى: { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ } أي: وجعلناه برأ بوالديه، والبر بمعنى: البار؛

والمعنى: لطيفاً بهما، محسناً إليهما. والعصي بمعنى: العاصي. وقد شرحنا
معنى الجبار في [هود: 59].

قوله تعالى: { وَوَسَّلْمٌ عَلَيْهِ } فيه قولان.

أحدهما: أنه السلام المعروف من الله تعالى، قال عطاء: سلام عليه مني في
هذه الأيام؛ وهذا اختيار أبي سليمان.

والثاني: أنه بمعنى: السلامة، قاله ابن السائب.

فإن قيل: كيف خص التسليم عليه بالأيام، وقد يجوز أن يولد ليلاً ويموت ليلاً؟

فالجواب: أن المراد باليوم الحين والوقت، على ما بينا في قوله: { لِيَوْمٍ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [المائدة: 3].

قال ابن عباس: وسلام عليه حين ولد. وقال الحسن البصري: التقى يحيى

وعيسى، فقال يحيى لعيسى: أنت خير مني، فقال عيسى ليحيى: بل أنت خير

مني، سلم الله عليك، وأنا سلمت على نفسي. وقال سعيد بن جبیر مثله: إلا

أنه قال أثنى الله عليك، وأنا أثنت على نفسي. وقال سفيان بن عيينه: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم يره، فخص الله تعالى يحيى فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة. { وَ لُكُزِّ فِي لِكْتَبِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * وَ لُحَدِّثٍ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ أَإِنِّي آءُودُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا }

قوله تعالى: { وَ لُكُزِّ فِي لِكْتَبِ } يعني: القرآن { مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ } قال أبو عبيدة: تنحت واعتزلت { مَكَانًا شَرْقِيًّا } مما يلي المشرق، وهو عند العرب خير من الغربي.

قوله تعالى: { وَ لُحَدِّثٍ مِنْ دُونِهِمْ } يعني: أهلها { حِجَابًا } أي: ستراً وحاجزاً، وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها ضربت ستراً، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن الشمس أظلتها، فلم يرها أحد منهم، وذلك مما سترها الله به، وروي هذا المعنى عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: أنها اتخذت حجاباً من الجدران، قاله السدي عن أشياخه. وفي سبب انفرادها عنهم قولان.

أحدهما: أنها انفردت لتطهر من الحيض وتمتشط، قاله ابن عباس. والثاني: لتفلي رأسها، قاله عطاء.

قوله تعالى: { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } وهو جبريل في قول الجمهور. وقال ابن الأنباري: صاحب روحنا، وهو جبريل. والروح بمعنى: الروح والفرح، ثم تضم الراء لتحقيق مذهب الاسم، وإبطال طريق المصدر، ويجوز أن يراد بالروح هاهنا: الوحي وجبريل صاحب الوحي.

وفي وقت مجيئه إليها ثلاثة أقوال.

أحدها: وهي تغتسل.

والثاني: بعد فراغها، ولبسها الثياب.

والثالث: بعد دخولها بيتها، وقد قيل: المراد بالروح هاهنا: الروح الذي خلق منه عيسى، حكاه الزجاج، والماوردي، وهو مضمون كلام أبي بن كعب فيما سنذكره عند قوله: { فَحَمَلَتْهُ }. قال ابن الأنباري: وفيه بعد، لقوله: { فَتَمَثَّلَ }

لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا }، والمعنى: تصور لها في صورة البشر التام الخلقة. وقال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد قشط حين طر شاربه. وقرأ أبو نهيك: فأرسلنا إليها روحنا بفتح الراء، من الروح. قوله تعالى: { قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا } المعنى: إن كنت تتقي الله، فستنتهي بتعودي منك، هذا هو القول عند المحققين. وحكي عن ابن عباس أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي، وكان فاجراً، فظنته إياه، ذكره ابن الأنباري، والماوردي. وفي قراءة علي عليه السلام، وابن مسعود، وأبي رجاء: إلا أن تكون تقياً.

قوله تعالى: { قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ } أي: فلا تخافي { أَخْلَلْنَا لَكَ } قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: لأهب لك بالهمز. وقرأ أبو عمرو، وورش عن نافع: ليهب لك بغير همز. قال الزجاج: من قرأ ليهب فالمعنى: أرسلني ليهب، ومن قرأ لأهب فالمعنى: أرسلت إليك لأهب لك. وقال ابن الأنباري: المعنى: أرسلني يقول لك: أرسلت رسولي إليك لأهب لك. قوله تعالى: { عَلِمًا زَكِيًّا } أي: طاهراً من الذنوب. والبغي: الفاجرة الزانية. قال ابن الأنباري: وإنما لم يقل: بغية لأنه وصف يغلب على النساء، فقلما تقول العرب: رجل بغي؛ فيجري مجرى حائض، وعافر. وقال غيره: إنما لم يقل: بغية لأنه مصروف عن وجهه، فهو فعيل بمعنى: فاعل. ومعنى الآية: ليس لي زوج، ولست بزانية، وإنما يكون الولد من هاتين الجهتين. { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ } قد شرحناه في قصة زكريا، والمعنى: أنه يسير علي أن أهب لك غلاماً من غير أب. { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ } أي: دلالة على قدرتنا كونه من غير أب. قال ابن الأنباري: إنما دخلت الواو في قوله: { وَلِنَجْعَلَهُ } لأنها عاطفة لما بعدها على كلام مضمحل محذوف، تقديره: قال ربك خلقه علي هين لننفعك به ولنجعله عبرة.

قوله تعالى: { وَرَحْمَةً مِّنَّا } أي: لمن تبعه وآمن به { وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا } أي: وكان خلقه أمراً محكوماً به، مفروغاً عنه، سابقاً في علم الله تعالى كونه. { فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا لِمَخَاضٍ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثُ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيًّا * فَتَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَرَّ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا * فَكَلِمَى وَ شَرِي وَ قَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ لِيَوْمٍ أَنْسِيًّا } قوله تعالى: { فَحَمَلَتْهُ } يعني: عيسى. وفي كيفية حملها له قولان.

أحدهما: أن جبريل نفخ في جيب درعها، فاستمر بها حملها، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس. قال السدي: نفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قدامها، فدخلت النفخة في صدرها فحملت من وقتها.

والثاني: الذي خاطبها هو الذي حملته، ودخل من فيها، قاله أبي بن كعب. وفي مقدار حملها سبعة أقوال.

أحدها: أنها حين حملت وضعت، قاله ابن عباس، والمعنى: أنه ما طال حملها، وليس المراد أنها وضعت في الحال، لأن الله تعالى يقول: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ}، وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الانتباز به.

والثاني: أنها حملته تسع ساعات، ووضعت من يومها، قاله الحسن.

والثالث: تسعة أشهر، قاله سعيد بن جبير، وابن السائب.

والرابع: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، وصور في ساعة، ووضعت في ساعة، قاله مقاتل بن سليمان.

والخامس: ثمانية أشهر، فعاش، ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر، فكان في هذا آية، حكاه الزجاج.

والسادس: في ستة أشهر، حكاه الماوردي.

والسابع: في ساعة واحدة، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: {فَإِنتَبَدَتْ بِهِ} يعني بالحمل {مَكَانًا قَصِيًّا} أي: بعيداً. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عمير: {قاصياً}. قال ابن اسحاق: مشت ستة أميال. قال الفراء: القصي والقاصي بمعنى واحد. وقال غير الفراء: القصي والقاصي بمنزلة الشهيد والشاهد. وإنما بعدت، فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج.

قوله تعالى: {قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا لُمَخَاضٌ} وقرأ عكرمة، وإبراهيم النخعي، وعاصم الجحدري: المخاض بكسر الميم.

قال الفراء: المعنى: فجاء بها المخاض، فلما ألقيت الباء، جعلت في الفعل ألفاً، ومثله: {عَدَاءٌ تَأْتِي لَقَدْ} [الكهف: 63] أي: ومثله: {زُبْرٌ لِحَدِيدٍ حَتَّى} [الكهف: 96] أي: بزبر الحديد. قال أبو عبيدة: أفعلها من جاءت هي، وأجاءها غيرها. وقال ابن قتيبة: المعنى: جاء بها، وأجأها، وهو من حيث: يقال جاءت بي الحاجة إليك، وأجاءتني الحاجة إليك، والمخاض: الحمل. وقال غيره: المخاض: وجع الولادة. {إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} وهو ساق النخلة، وكانت نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا سعف. {قَالَتْ يَا أَيُّهَا لَيْتَنِي * مِتُّ قَبْلَ هَذَا} اليوم، أو هذا الأمر. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: مِتُّ بكسر الميم.

وفي سبب قولها هذا قولان.
أحدهما: أنها قالته حياء من الناس.
والثاني: لئلا يَأْتَمُوا بِقَذْفِهَا.
قوله تعالى: { وَكَنتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، بكسر النون. وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: نسيا بفتح النون، قال الفراء: وأصحاب عبد الله يقرؤون: نسيا بفتح النون، وسائر العرب بكسرهما، وهما لغتان، مثل الجسر والجسر، والوتر والوتر، والفتح أحب إلي. قال أبو علي الفارسي: الكسر على اللغتين. وقال ابن الأنباري: من كسر النون قال: النسبي: اسم لما ينسى، بمنزلة البغض اسم لما يبغض، والسب اسم لما يسب. والنسي بفتح النون: اسم لما ينسى أيضاً على أنه مصدر ناب عن الاسم، كما يقال: الرجل دَنَفَ ودَتَفَ. فالمكسور: هو الوصف الصحيح، والمفتوح: مصدر سد مسد الوصف. ويمكن أن يكون النسبي والنسي اسمين لمعنى، كما يقال: الرطل والرطل.
وللمفسرين في قوله تعالى: { نَسِيًّا مَّنْسِيًّا } خمسة أقوال.
أحدها: يا ليتني لما أكن شيئاً، قاله الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وابن زيد.
والثاني: وكنت نسيا منسيا أي: دم حيضة ملقاة، قاله مجاهد، وسعيد ابن جبير، وعكرمة. قال الفراء: النسبي: ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها. وقال ابن الأنباري: هي خرق الحيض تلقيها المرأة فلا تطلبها ولا تذكرها.
والثالث: أنه السقط، قاله أبو العالية، والربيع.
والرابع: أن المعنى: يا ليتني لا يدري من أنا، قاله قتادة.
والخامس: أنه الشيء التافه يرتحل عنه القوم، فيهون عليهم فلا يرجعون إليه، قاله ابن السائب. وقال أبو عبيدة: النسبي، والمنسي ما ينسى من إدارة وعصا.
يعني أنه ينسى في المنزل، فلا يرجع إليه لاحتقار صاحبه إياه. وقال الكسائي: معنى الآية: ليتني كنت ما إذا ذكر لم يطلب.
قوله تعالى: { فَتَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا } قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: من تحتها بفتح الميم، والتاء. قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: من تحتها بكسر الميم والتاء، فمن قرأ بكسر الميم، ففيه وجهان.
أحدهما: ناداها الملك من تحت النخلة. وقيل: كانت على نشز، فناداها الملك أسفل منها.

والثاني: نادها عيسى لما خرج من بطنها. قال ابن عباس: كل مارفعت إليه طرفك، فهو فوقك، وكل ما خفصت إليه طرفك، فهو تحتك، ومن قرأ بفتح الميم، ففيه الوجهان المذكوران. وكان الفراء يقول: ما خاطبها إلا الملك على القراءتين جميعاً.

قوله تعالى: { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا } فيه قولان.

أحدهما: أنه النهر الصغير، قاله جمهور المفسرين، واللغويون، قال أبو صالح، وابن جريج: هو الجدول بالسريانية.

والثاني: أنه عيسى كان سرياً من الرجال، قاله الحسن، وعكرمة، وابن زيد. قال ابن الأنباري: وقد رجع الحسن عن هذا القول إلى القول الأول، ولو كان وصفا لعيسى، كان غلاماً سرياً أو سويماً من الغلمان، وقلما تقول العرب: رأيت عندك نبيلاً، حتى يقولوا: رجلاً نبيلاً.

فإن قيل: كيف ناسب تسليتها أن قيل: لا تحزني، فهذا نهر يجري؟ فالجواب: من وجهين.

أحدهما: أنها حزنت لجذب مكانها الذي ولدت فيه، وعدم الطعام والشراب والماء الذي تتطهر به، فقيل: لا تحزني قد أجرينا لك نهراً، وأطلعنا لك رطباً، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنها حزنت لما جرى عليها من ولادة ولد عن غير زوج، فأجرى الله تعالى لها نهراً، فجاءها من الأردن، وأخرج لها الرطب من الشجرة اليابسة، فكان ذلك آية يدل على قدرة الله تعالى في إيجاد عيسى، قاله مقاتل. قوله تعالى: { أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْهَزْزَ التَّحْرِيكَ }

والباء في قوله تعالى: { يَجِدُّعُ النَّخْلَةَ } فيها قولان.

أحدهما: أنها زائدة مؤكدة، كقوله تعالى: { قَلِيمٌ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ } [الحج: 15] قال الفراء: معناه: فليمدد سبباً. والعرب تقول: هزه، وهز به، وخذ الخطام، وخذ بالخطام، وتعلق زيدا، وتعلق به. وقال أبو عبيدة: هي مؤكدة، كقول الشاعر:
نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

والثاني:

أنها دخلت على الجذع لتلصقه بالهز، فهي مفيدة للالصاق، قاله ابن الأنباري. قوله تعالى: { تُسْقِطُ } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: تساقط بالتاء مشددة السين. وقرأ حمزة، وعبد الوارث: تساقط بالتاء مفتوحة مخففة السين. وقرأ حفص عن عاصم:

تساقط بضم التاء وكسر القاف مخففة السين. وقرأ يعقوب، وأبو زيد عن المفضل: يساقط بالياء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف. فهذه القراءات المشاهير. وقرأ أبي بن كعب، وأبو حيو: «تسقط» بفتح التاء وسكون السين ورفع القاف. وقرأ عبد الله بن عمرو، وعائشة، والحسن: يساقط بالالف وتخفيف السين ورفع الياء وكسر القاف. وقرأ الضحاک، وعمرو بن دينار: يسقط برفع الياء وكسر القاف مع سكون السين وعدم الألف. وقرأ عاصم، الجحدري، وأبو عمران الجوني مثله، إلا أنه بالتاء، وقرأ معاذ القاري، وابن عمر مثله، إلا أنه بالنون. وقرأ أبو زرين العقيلي، وابن أبي عبلة: يسقط بالياء مفتوحة مع سكون السين ورفع القاف. وقرأ أبو السماك العدوي، وابن حزام: تتساقط بتاءين مفتوحين وبالالف. وقال الزجاج: من قرأ يساقط فالمعنى: يتساقط فأدغمت التاء في السين، ومن قرأ تساقط بالتاء والتخفيف، فإنه حذف من تتساقط اجتماع التاءين. ومن قرأ يساقط ذهب إلى معنى: يساقط الجذع عليك. ومن قرأ نساقت بالنون، فالمعنى: نحن نساقت عليك، فنجعله لك آية، والنحويون يقولون: إن رطباً منصوب على التمييز إذا قلت: يساقط أو يتساقط، المعنى: يتساقط الجزع رطباً. وإذا قلت: تساقط بالتاء، فالمعنى: تتساقط النخلة رطباً.

قوله تعالى: {جَنِيًّا} قال الفراء: الجني: المجتني، وقال ابن الأنباري: هو الطري، والأصل: مجنو، صرف من مفعول إلى فعيل، كما يقال: قديد، وطبيخ. وقال غيره: هو الطري بغباره: ولم يكن لتلك النخلة رأس، فأنبته الله تعالى، فلما وضعت يدها عليها، سقط الرطب رطباً. وكان السلف يستحبون للنفساء الرطب من أجل مريم عليها السلام.

قوله تعالى: {فَكَلِمَى} أي: من الرطب {وَوَقَّرِي عَيْنًا} من النهر {وَقَرِّي عَيْنًا} بولادة عيسى عليه السلام. قال الزجاج: يقال: قررت به عينا أقر، بفتح القاف في المستقبل، وقررت في المكان أقر، بكسر القاف، وعينا: منصوب على التمييز. وروى ابن الأنباري عن الأصمعي: أنه قال: معنى وقري عينا؛ ولتبرد دمعتك، لأن دمة الفرحة باردة، ودمة الحزن حارة. واشتقاق قري من القرور، وهو الماء البارد. وقال لنا أحمد بن يحيى: تفسير قري عينا بلغت غاية أملك حتى تقر عينك من الاستشراق إلى غيره، واحتج بقول عمرو بن كلثوم: يوم كريمة ضربا وطعنا أقر به مواليك العيون

أي: ظفروا وبلغوا منتهى أمنيتهم، فقرت عينهم من تطلع الى غيره.

قوله تعالى: { قَائِمًا تَرِيًّا } وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، وابن السميع، والضحاك، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: ترئن بهمزة مكسورة من غير ياء. أي: إن رأيت من البشر أحدا فقولني؛ وفيه إضمار تقديره: فسألك عن أمر ولدك. فقولني { إِنِّي تَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا } فيه قولان. أحدهما: صمتاً، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك، والضحاك؛ وكذلك قرأ أبي بن كعب، وأنس بن مالك، وأبو رزين العقيلي: صمتاً مكان قوله: صوماً. وقرأ ابن عباس: صياماً.

والثاني: صوماً عن الطعام والشراب والكلام، قاله قتادة. وقال ابن زيد: كان المجتهد من بني إسرائيل يصوم عن الكلام كما يصوم عن الطعام، إلا من ذكر الله عز وجل. قال السدي: فأذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم تسكت. قال ابن مسعود: أمرت بالصمت، لأنها لم تكن لها حجة عند الناس، فأمرت بالكف عن الكلام ليكفيها الكلام ولدها مما يبريء بها ساحتها. وقيل: كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس. قال ابن الأنباري: الصوم في لغة العرب على أربعة معان، يقال: يوم لترك الطعام والشراب، وصوم للصمت، وصوم لضرب من الشجر، وصوم لذرق النعام.

واختلف العلماء في مقدار سن مريم يوم ولادتها على ثلاثة أقوال. أحدها: أنها ولدت وهي بنت خمس عشرة سنة، قاله وهب بن منبه. والثاني: بنت اثنتي عشرة سنة، قاله زيد بن أسلم.

والثالث: بنت ثلاث عشرة سنة، قاله مقاتل.

{ قَائِمٌ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْزِجُ لَقَدْ جَنِبَ شَيْئًا قَرِيبًا * يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ مُرًّا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي لِمَهْدٍ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي لِكِتَابٍ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا } قوله تعالى: { قَائِمٌ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ } قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أتتهم به بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها. وقال في رواية الضحاك: انطلق قومها يطلبونها، فلما رأتهم حملت عيسى فتلقتهم به، فذلك قوله تعالى: { قَائِمٌ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ }.

فإن قيل: أتت به يعني عن تحمله فلا فائدة للتكرير.

فالجواب: أنه لما طهرت منه آيات، جاز أن يتوهم السامع فأتت به أن يكون ساعياً على قدميه، فيكون سعية آية كمنطقه، فقطع ذلك التوهم، وأعلم أنه كسائر الأطفال، وهذا مثل قول العرب: نظرت إلى فلان بعيني، فنفوا بذلك

نظر العطف؛ والرحمة، وأثبتوا أنه نظر عين. وقال ابن السائب: لما دخلت علي قومها بكوا، وكانوا قوماً صالحين؛ و{قَالُوا يَا أَبَاتَا * مَرِيَمَ * لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيًّا} وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: شيئاً عظيماً، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الفراء: الفري: العظيم، والعرب تقول: تركته يفري الفري، إذا عمل فأجاد العمل ففضل الناس، قيل هذا فيه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فما رأيت عبقرياً يفري فري عمر.

والثاني: عجباً فائقاً، قاله أبو عبيدة.

والثالث: شيئاً مصنوعاً، ومنه يقال: فريت الكذب، وافتريته، قاله اليزيدي. قوله تعالى: {فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ} في المراد بهارون هذا خمسة أقوال. أحدها: أنه أخ لها من أمها، وكان من أمثل فتى في بني إسرائيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال الضحاك: كان من أبيها وأمها.

والثاني: أنها كانت من بني هارون، قاله الضحاك عن ابن عباس. وقال السدي: كانت من بني هارون أخي موسى عليهما السلام، فنسبت إليه، لأنها من ولده.

والثالث: أنه رجل صالح كان في بني إسرائيل، فشبهوها به في الصلاح، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وقتادة، ويدل عليه ما روى المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران، فقالوا: ألستم تقرأون: يا أخت هارون وقد علمتم ما كان بين موسى وعيسى؟ فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمعون بأنبيائهم والصالحين قبلهم.

والرابع: أن قوم هارون كان فيهم فساق وزناة، فنسبوا إليهم، قاله سعيد بن جبير.

والخامس: أنه رجل من فساق بني إسرائيل شبهوها به، قاله وهب بن منبه. هذا يخرج في معنى الأخت قولان.

أحدهما: أنها الأخت حقيقة.

والثاني: المشابهة، لا المناسبة، كقوله تعالى: {وَمَا تُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا} [الزخرف: 48].

قوله تعالى: {مَا كَانَ أَبُوكَ} يعنون: عمران {مُرّاً سَوْءَ} أي: زانياً {وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ} حنة {بَغِيًّا} أي: زانية، فمن أين لك هذا الولد؟

قوله تعالى: { فَأَشَارَتْ } أي: أومأت { إِلَيْهِ } أي: إلى عيسى فتكلم. وقيل
المعنى: أشارت إليه أن كلموه. وكان عيسى قد كلمها حين أتت قومها، وقال:
يا أماه أبشري فإني عيد الله ومسيحه، فلما أشارت أن كلموه، تعجبوا من
ذلك، و{ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ } وفيها أربعة أقوال.
أحدها: أنها زائدة فالمعنى كيف نكلم صبياً في المهد؟.

والثاني: أنها في معنى: وقع، وحدث.

والثالث: أنها في معنى الشرط والجزاء، فالمعنى: من يكن في المهد صبياً،
فكيف نكلمه؟ حكاها الزجاج، واختار الأخير منها؛ قال ابن الأنباري: وهذا كما
تقول: كيف أعظ من كان لا يقبل موعظتي؟ أي: من يكن لا يقبل، والماضي
يكون بمعنى المستقبل في الجزاء.

والرابع: أن كان بمعنى: صار، قاله قطرب.

وفي المراد بالمهد قولان.

أحدهما: حجرها، قاله نوف، وقتادة، والكلبي.

والثاني: سرير الصبي المعروف، حكاه الكلبي أيضاً.

قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم، لم يزد على أن ترك الرضاع، وأقبل
عليهم بوجهه، فقال: إني عبد الله. قال المفسرون: إنما قدم ذكر العبودية،
ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية. وفي قوله: { لِكِتَابٍ وَجَعَلَنِي } أسكن
هذه الياء حمزة. وفي معنى الآية قولان.

أحدهما: أنه أتاه الكتاب وهو في بطن أمه، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

وقيل: علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه.

والثاني: قضى أن يؤتيني الكتاب، قاله عكرمة.

وفي الكتاب قولان.

أحدهما: أنه التوراة.

والثاني: الأنجيل.

قوله تعالى: { وَجَعَلَنِي نَبِيًّا } هذا وما بعده إخبار عما قضى الله له وحكم له به
ومنحه إياه مما سيظهر ويكون. وقيل: المعنى: يؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً إذا
بلغت؛ فحل الماضي محل المستقبل، كقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى
عِيسَى } [المائدة: 116].

أحدهما: أنه كلمهم بعد أربعين يوماً.

والثاني: في يومه. وهو مبني على ما ذكرنا من الزمان الذي غابت عنهم فيه.

مريم.

قوله تعالى: { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا * أَيَّمَا كُنْتُ } روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال: نفاعا حيثما توجهت. وقال مجاهد: معلما للخير.

وفي المراد بالزكاة قولان.

أحدهما: زكاة الأموال، قاله ابن السائب.

والثاني: الطهارة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: { وَبَرًّا بِوَالِدَيْ } قال ابن عباس: لما قال هذا، ولم يقل: بوالدي علموا أنه ولد من غير بشر.

قوله تعالى: { وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا } أي: متعظما { شَقِيًّا } عاصيا لربه

{ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ } قال المفسرون: السلامة علي من الله يوم

ولدت حتى لم يضرنى شيطان. وقد سبق تفسير الآية [مريم 15].

فان قيل: لم ذكر هاهنا السلام بألف ولام، وذكره في قصة يحيى بلا ألف ولام؟ فعنه جوابان.

أحدهما: أنه لما جرى ذكر السلام قبل هذا الموضع بغير ألف ولام، كان

الأحسن أن يرد ثانية بألف ولام، هذا قول الزجاج.

وقد اعترض على هذا القول، فقيل: كيف يجوز أن يعطف هذا وهو قول

عيسى، على الأول وهو قول الله عز وجل؟

وقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: عيسى إنما يتعلم من ربه، فيجوز أن يكون

سمع قول الله في يحيى، فبنى عليه وألصقه بنفسه، ويجوز أن يكون الله عز

وجل عرف السلام الثاني لأنه أتى بعد سلام قد ذكره، وأجراه عليه غير قاصد

به اتباع اللفظ المحكي، لأن المتكلم، له أن يغير بعض الكلام الذي يحكيه،

فيقول: قال عبد الله: أنا رجل منصف، يريد: قال لي عبد الله: أنت رجل

منصف.

والجواب الثاني: أن سلاما والسلام لغتان بمعنى واحد، ذكره ابن الأنباري.

{ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ لِحَقِّ لِيذِي فِيهِ يَمْتُرُونَ * مَا كَانَهُ لَلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ

وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ إِلَهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ

وَ عِبْدُوهُ هَذَا صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ }

قوله تعالى: { ذَلِكَ عِيسَى * ابْنِ مَرْيَمَ } قال الزجاج: أي، ذلك الذي قال: إني

عبد الله، هو ابن مريم، لا ما تقول النصارى: إنه ابن الله، وإنه إله.

قوله تعالى: { قَوْلَ لِحَقِّ } قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وحمزة،

والكسائي: قول الحق برفع اللام. وقرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب: بنصب

اللام. قال الزجاج: من رفع قول الحق فالمعنى: هو قول الحق، يعني هذا

الكلام؛ ومن نصب، فالمعنى: أقول قول الحق. وذكر ابن الأنباري في الآية وجهين.

أحدهما: أنه لما وصف بالكلمة جاز أن ينعت بالقول.
والثاني: أن في الكلام إضماراً، تقديره: ذلك نبا عيسى، ذلك النبا قول الحق.
قوله تعالى: { لِيَذِي فِيهِ يَمْتُرُونَ } أي: يشكون. قال قتادة: امترت اليهود فيه والنصارى، فزعم اليهود أنه ساحر، وزعم النصارى أنه ابن الله وثالث ثلاثة.
قرأ أبو مجلز، ومعاذ القاري، وابن يعمر، وأبو رجاء: تمترون بالتاء.
قوله تعالى: { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } قال الزجاج: المعنى: أن يتخذ ولداً. ومن مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة، لأن للقائل أن يقول: ما اتخذت فرساً، يريد: اتخذت أكثر من ذلك، وله أن يقول: اتخذت فرسين ولا أكثر، يريد: اتخذت فرساً واحداً؛ فإذا قال: ما اتخذت من فرس، فقد دل على نفي الواحد والجميع.

قوله تعالى: { كُنْ فَيَكُونُ } وقرأ أبو عمران، الجوني، وابن أبي عبله: فيكون بالنصب، وقد ذكرنا وجهه في [البقرة 117].
قوله تعالى: { وَإِنَّ إِلَهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ } قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: وأن الله بنصب الألف. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: وإن الله بكسر الألف. وهذا من قول عيسى؛ فمن فتح، عطفه على قوله: { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ } وبأن الله ربي؛ ومن كسر ففيه وجهان.
أحدهما: أن يكون معطوفاً على قوله: { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ }.
والثاني: أن يكون مستأنفاً.

{ وَخَلَّفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتِنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ لِيَوْمٍ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ لَحْسَرَةٍ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }

قوله تعالى: { وَخَلَّفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ } قال المفسرون: من زائدة، والمعنى: اختلفوا بينهم. وقال ابن الأنباري: لما تمسك المؤمنون بالحق كان اختلاف الأحزاب بين المؤمنين مقصوراً عليهم.
وفي الأحزاب قولان.

أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، فكانت اليهود تقول: إنه لغير رشدة، والنصارى تدعي فيه ما لا يليق به.

والثاني: أنهم فرق النصارى، قال بعضهم: هو الله، وقال بعضهم: ابن الله، وقال بعضهم: ثالث ثلاثة.

قوله تعالى: { قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا } بقولهم في المسيح { مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } أي: من حضورهم ذلك اليوم للجزاء.
قوله تعالى: { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } فيه قولان.
أحدهما: أن لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر؛ فالمعنى: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، سمعوا وأبصروا حين لم ينفعهم ذلك لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا يحتاجون معه إلى نظر وفكر فعلموا الهدى وأطاعوا، هذا قول الأكثرين.
والثاني: أسمع بحديثهم اليوم، وأبصر كيف يصنع بهم { يَوْمَ يَأْتُونَنَا } قاله أبو العالية.

قوله تعالى: { لَكِنَّ الظَّالِمُونَ } يعني: المشركين والكفار { لِيَوْمٍ } يعني: في الدنيا { فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }.
قوله تعالى: { وَأَنْذِرْهُمْ } أي: خوف كفار مكة { يَوْمَ الْحَسْرَةِ } يعني: يوم القيامة يتحسر المسيء إذ لم يحسن، والمقصر إذ لم يزد من الخير.
وموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرة، فمن ذلك ما روى أبو سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قيل: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، وقيل: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: هذا الموت، فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت؛ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }.
قال المفسرون: فهذه هي الحسرة إذا ذبح الموت، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار.

ومن موجبات الحسرة، ما روى عدي بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها، نودوا: أن أصرفوهم عنها، لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها، فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا كان أهون علينا؛ قال: ذلك أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظام، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني، وأجلتكم الناس ولم تجلوني، تركتم للناس ولم تتركوا لي، فالיום أذيقكم العذاب مع ما حرمتكم من الثواب.

ومن موجبات الحسرة ما روى عن ابن مسعود قال: ليس من نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة، وبيت في النار، ثم يقال: يعني

لهؤلاء: لو عملتم، ولأهل الجنة: لولا أن من الله عليكم. ومن موجبات الحسرة: قطع الرجاء عند إطباق النار على أهلها. قوله تعالى: {إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ} قال ابن الأنباري: قضى في اللغة بمعنى: أُنقذ وأحكم، وإنما سمي الحاكم قاضيا، لإتقانه وإحكامه ما ينفذ. وفي الآية اختصار، والمعنى: إذ قضى الأمر الذي فيه هلاكهم. وللمفسرين في الأمر قولان.

أحدهما: أنه ذبح الموت، قاله ابن جريج، والسدي.

والثاني: أن المعنى: قضى العذاب لهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} أي: هم في الدنيا في غفلة عما يصنع بهم ذلك اليوم {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} بما يكون في الآخرة.

قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ بَرُّ الْأَرْضِ} أي: نमित سكانها فنرثها {وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ} بعد الموت.

فإن قيل: ما الفائدة في نحن وقد كفت عنها إنا؟

فالجواب: أنه لما جاز في قول المعظم: إنا نفعل أن يوهم أن أتباعه قلعوا، أبانت نحن بأن الفعل مضاف إليه حقيقة.

فإن قيل: فلم قال: ومن عليها وهو يرث الآدميين وغيرهم؟

فالجواب: أن من تختص أهل التمييز، وغير المميزين يدخلون في معنى الأرض

ويجرون مجراها، ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري

{وَلَوْ كُنَّا فِي لِكْتَابٍ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا

لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُعْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ

يَأْتِكَ وَأَنَا تَبِعُهُ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنَّكَ أَجَافٌ أُنزِلَتْ عَلَيْكَ آيَاتٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتُكُونَ

لِلشَّيْطَانِ وَاوِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْ يَأْتِيَكَ مِنَ الْآيَاتِ آيَةٌ فَتَقُولَ إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا

أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ

عِشْرَةٌ إِلَّا أَنْتَ مِمَّنْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا

أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ

إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ

إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ

إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ

إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ

إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ

إِنِّي سَمِعْتُ الْآيَةَ لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُي إِذْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو اللَّهَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَتَقُولَ

قوله تعالى: { لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } أي: لا تطعه فيما يأمر به من الكفر والمعاصي. وقد شرحنا معنى كان أنفاً. و { عَصِيًّا } أي: عاصياً، فهو فعيل بمعنى فاعل.

قوله تعالى: { إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ } قال مقاتل: في الآخرة؛ وقال غيره: في الدنيا، { فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } أي: قرينا في عذاب الله، فجرت المقارنة مجرى الموالاتة. وقيل: إنما طمع إبراهيم في إيمان أبيه، لأنه حين خرج من النار قال له: نعم الإله إلهك يا إبراهيم، فحينئذ أقبل يعظه، فأجابه أبوه: { أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنِ إِلَهِئِ يَابْرَهِيمَ * إِبْرَاهِيمَ }! أي: أترك عبادتها أنت؟ { لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ } عن عيها وشتمها { لَأَرْجُمَنَّكَ } وفيه قولان. أحدهما: بالشتم والقول، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: بالحجارة حتى تتباعد عني، قاله الحسن. قوله تعالى: { وَهُجْرَنِي مَلِيًّا } فيه قولان.

أحدهما: اهجرني طويلاً، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والفراء، والأكثرين. قال ابن قتيبة: اهجرني حيناً طويلاً، ومنه يقال: تمليت حبيبك.

والثاني: أجتنبني سالماً قبل أن تصيبك عقوبتي، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك؛ فعلى هذا يكون من قولهم: فلام مليّ بكذا وكذا: إذا كان مضطلعا به، فالمعنى: اهجرني وعرضك وافر، وأنت سليم من أذاي، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ } أي: سلمت من أن أصيبك بمكروه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره، { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } فيه قولان. أحدهما: أن المعنى سأسأل الله لك توبةً تنال بها مغفرته. والثاني: أنه وعده الاستغفار وهو لا يعلم أن ذلك محذور في حق المصرين على الكفر، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } فيه ثلاثة أقوال. أحدها: لطيفاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، والزجاج. والثاني: رحيماً، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: باراً عودني منه الإجابة إذا دعوته، قاله ابن قتيبة. قوله تعالى: { وَأَعْتَزِلْكُمْ } أي: وأتنحى عنكم، { وَأَعْتَزِلْكُمْ } أقرأيتم ما تدعون من دون الله { يعني: الأصنام. وفي معنى تدعون قولان. أحدهما: تعبدون.

والثاني: أن المعنى: وما تدعونه ربا، {وَأَدْعُوا رَبِّي} أي: وأعبده {عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} أي: أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام، لأنها لا تنفعهم ولا تجيب دعاءهم {فَلَمَّا عُرِّزَ لَهُمْ} قال المفسرون: هاجر عنهم إلى أرض الشام، فوهب الله له إسحاق ويعقوب، فأنس الله وحشته عن فراق قومه بأولاد كرام. قال أبو سليمان: وإنما وهب له إسحاق ويعقوب بعد إسماعيل.

قوله تعالى: {وَكَلَّا} أي: وكلا من هذين. وقال مقاتل: وكلا يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب {جَعَلْنَاهُ نَبِيًّا}. {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا} قال المفسرون: المال والولد والعلم والعمل، {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} قال ابن قتيبة: أي: ذكراً حسناً في الناس مرتفعاً، فجميع أهل الأديان يتولون إبراهيم وذريته ويشنون عليهم، فوضع اللسان مكان القول، لأن القول يكون باللسان.

{وَلُكِّرَ فِيهِ لِكُتُبِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا} وكان رسولاً نبياً * وَتَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا {قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا} قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: مخلصاً بكسر اللام. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بفتح اللام. قال الزجاج: المخلص، بكسر اللام: الذي وحده الله، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنسه، والمخلص، بفتح اللام: الذي أخلصه الله، وجعله مختاراً خالصاً من الدنس.

قوله تعالى: {وَكَانَ رَسُولًا} قال ابن الأنباري: إنما أعاد كان لتفخيم شأن النبي المذكور.

قوله تعالى: {وَتَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ} أي: من ناحية الطور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير. قال ابن الأنباري: إنما خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم، ومن كلامهم: عن يمين القبلة وشمالها، يعنون: مما يلي يمين المستقبل لها وشماله، فنقلوا الوصف إلى ذلك اتساعاً عند انكشاف المعنى، لأن الوادي لا يد له فيكون له يمين. وقال المفسرون: جاء النداء عن يمين موسى، فلماذا قال: الأيمن، ولم يرد به يمين الجبل.

قوله تعالى: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} قال ابن الأنباري: معناه: مناجياً فعبر فعيل عن مفاعل، كما قالوا: فلان خليطي وعشيرتي: يعنون: مخالطي ومعاشرتي. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: وقربناه قال: حتى سمع صريف القلم حين كتب له في الألواح.

قوله تعالى: { وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا } أي: من نعمتنا عليه إذ أجبنا دعاءه حين سأل أن نجعل معه أخاه وزيراً له.
{ وَ لُكُزِّ فِي لِكْتَبِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقَ لُوعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا * وَ لُكُزِّ فِي لِكْتَبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا }
قوله تعالى: { إِنَّهُ كَانَ صَدِيقَ لُوعْدِ } هذا عام فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس. وقال مجاهد: لم يعد ربه بوعده قط إلا وفي له به.
فإن قيل: كيف خص بصدق الوعد إسماعيل، وليس في الأنبياء من ليس كذلك؟

فالجواب: أن إسماعيل عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعاناه غيره من الأنبياء، فأثني عليه بذلك. وذكر المفسرون أنه كان بينه وبين رجل ميعاد، فأقام ينتظره مدة فيها لهم ثلاثة أقوال.
أحدها: أنه أقام حولاً، قاله ابن عباس.
والثاني: اثنين وعشرين يوماً، قاله الرقاشي.
والثالث: ثلاثة أيام، قاله مقاتل.
قوله تعالى: { وَكَانَ رَسُولًا } إلى قومه، وهم جرهم. { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ } قال مقاتل: يعني: قومه. وقال الزجاج: أهله: جميع أمته. فأما الصلاة والزكاة، فهما العبادتان المعروفتان.
قوله تعالى: { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } فيه أربعة أقوال.
أحدها: أنه في السماء الرابعة، روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج: أنه رأى إدريس في السماء الرابعة، وبهذا قال أبو سعيد الخدري، ومجاهد، وأبو العالية.
والثاني: أنه في السماء السادسة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك.

والثالث: أنه في الجنة، قاله زيد بن أسلم، وهذا يرجع إلى الأول، لأنه قد روي أن الجنة في السماء الرابعة.
والرابع: أنه في السماء السابعة، حكاه أبو سليمان الدمشقي.
وفي سبب صعوده إلى السماء ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه كان يصعد له من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم، فأحبه ملك الموت، فاستأذن الله في خلته، فأذن له، فهبط إليه في صورة آدمي، يصحبه فلما عرفه، قال إنني أسألك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تذيقي الموت، فلعلي

أعلم ما شدته فأكون له أشد استعدادا؛ فأوحى الله إليه أن اقبض روحه ساعة ثم أرسله، ففعل، ثم قال: كيف رأيت؟ قال: كان أشد مما بلغني عنه، وإني أحب أن تريني النار، قال: فحمله، فأراه إياها؛ قال إني أحب أن تريني الجنة، فأراه إياها، فلما دخلها طاف فيها، قال: له ملك الموت: اخرج، فقال: والله لا أخرج حتى يكون الله تعالى يخرجني؛ فبعث الله ملكا فحكم بينهما، فقال: ما تقول يا ملك الموت؟ فقص عليه ما جرى؛ فقال: ما تقول يا إدريس؟ قال: إن الله تعالى قال: {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ لِمَوْتٍ} [آل عمران: 185]، وقد ذقته، وقال: {وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: 71] وقد وردتها، وقال لأهل الجنة: {وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: 48] فوالله لا أخرج حتى يكون الله يخرجني؛ فسمع هاتفا من فوقه يقول: بإذني دخل، وبأمري فعل، فخل سبيله؛ هذا معنى ما رواه زيد بن أسلم مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فان سأل سائل فقال: من أين لإدريس هذه الآيات، وهي في كتابنا؟ فقد ذكر ابن الأنباري عن بعض العلماء، قال: كان الله تعالى قد أعلم إدريس بما ذكر في القرآن من وجوب الورود، وامتناع الخروج من الجنة، وغير ذلك، فقال ما قاله بعلم.

والثاني: أن ملكا من الملائكة استأذن ربه أن يهبط إلى إدريس، فأذن له، فلما عرفه إدريس، قال: هل بينك وبين ملك الموت قرابة؟ قال: ذاك أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعي عند ملك الموت؟ قال سأكلمه فيك، فيرفق بك، اركب بين جناحي، فركب إدريس، فصعد به إلى السماء، فلقي ملك الموت، فقال: إن لي إليك حاجة، قال: أعلم ما حاجتك، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين؟ فمات إدريس بين جناحي الملك رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال أبو صالح عن ابن عباس: فقبض ملك الموت روح إدريس في السماء السادسة.

والثالث: أن إدريس مشى يوما في الشمس، فأصابه وهجها، فقال: اللهم خفف ثقلها عمن يحملها، يعني به الملك الموكل بالشمس، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وجرها ما لا يعرف، فسأل الله عز وجل عن ذلك، فقال: إن عبدي إدريس سألتني أن أخفف عنك حملها وحرها، فأجبتة، فقال: يا رب أجمع بيني وبينه، وأجعل بيننا خلة، فأذن له، فأتاه، فكان مما قال له إدريس: اشفع لي إلى ملك الموت ليؤخر أجلي، فقال: إن الله لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، ولكن أكلمه فيك، فما كان مستطيعا أن يفعل بأحد من بني آدم فعل

بك، ثم حمله الملك على جناحه، فرفعه إلى السماء، فوضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: إن لي إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله، قال: ليس ذاك إلي، ولكن إن أحببت أعلمته متى يموت فنظر في ديوانه، فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً، ولا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، فقال: إني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق، فما أراك تجده إلا ميتاً، فوالله ما بقي من أجله شيء، فرجع الملك فرآه ميتاً. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس وكعب في آخرين. فهذا القول والذي قبله يدلان على أنه ميت، وإلقول الأول يدل على أنه حي.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَجَنَّبَيْتَنَا إِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّتٍ عَدْنٍ لِّتِي وَعَدَّ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا * وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَعْبُدْهُ وَصَلِّ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا }
قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ} يعني: الذين ذكرهم من الأنبياء في هذه السورة {مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ} يعني إدريس {وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} يعني: إبراهيم، لأنه من ولد سام بن نوح {وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ} يريد: اسماعيل واسحاق ويعقوب {وَإِسْرَائِيلَ} يعني: ومن ذرية إسرائيل، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

قوله تعالى: {وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا} أي: هؤلاء كانوا ممن أرشدنا، {وَجَنَّبَيْتَنَا} أي: واصطفينا.

قوله تعالى: {خَرُّوا سُجَّدًا} قال الزجاج: سجداً حال مقدرة، المعنى: خروا مقدرين السجود، لأن الإنسان في حال خروره لا يكون ساجداً، فسجداً منصوب على الحال، وهو جمع ساجد وبكياً معطوف عليه، وهو جمع باك، فقد بين الله تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكوا من خشية الله.

قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} قد شرحناه في [الأعراف: 169] وفي المراد بهذا الخلف ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم اليهود، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي.

والثالث: أنهم من هذه الأمة، يأتون عند ذهاب صالحى أمة محمد صلى الله عليه وسلم يتبارون بالزنا، ينزوا بعضهم على بعض فى الأزقة زناة، قاله مجاهد، وقتادة.

قوله تعالى: { فَخَلَفَ مِنْ } وقرأ ابن مسعود، وأبو رزىن العقىلى، والحسن البصرى: الصلوات على الجمع.

وفى المراد بإضاعتهم إياها قولان.

أحدهما: أنهم أخروها عن وقتها، قاله ابن مسعود، والنخعى، وعمر بن عبد العزىز، والقاسم بن مخىمرة.

والثانى: تركوها، قاله القرظى، واختاره الزجاج.

قوله تعالى: { وَابْتِغُوا الشَّهْوَاتِ } قال أبو سلیمان الدمشقى: وذلك مثل استماع الغناء، وشرب الخمر، والزنا، واللهو، وما شاكل ذلك مما يقطع عن أداء فرائض الله عز وجل.

قوله تعالى: { فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } لىس معنى هذا اللقاء مجرد الرؤية، وإنما المراد به الاجتماع والملابسة مع الرؤية. وفى المراد بهذا الغى ستة اقوال. أحدها: أنه واد فى جهنم، روراه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه قال كعب.

والثانى: أنه نهر فى جهنم، قاله ابن مسعود.

والثالث: أنه الخسران، روراه ابن أبى طلحة عن ابن عباس.

والرابع: أنه العذاب، قاله مجاهد.

والخامس: أنه الشر، قاله ابن زىد، وابن السائب.

والسادس: أن المعنى: فسوف يلقون مجازاة الغى، كقوله: { يَلْقَى أَثَامًا } [الفرقان: 68] أى مجازاة الآثام، قاله الزجاج.

قوله تعالى: { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ } فى قولان.

أحدهما: تاب من الشرك، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، قاله مقاتل.

والثانى: تاب من التقصير فى الصلاة، وآمن من اليهود والنصارى.

قوله تعالى: { جَنَّاتٍ عَدْنٍ } وقرأ أبو رزىن العقىلى، والضحاك، وابن يعمر،

وابن أبى عبة: جنات برقع التاء. وقرأ الحسن البصرى، والشعبى، وابن

السمىفع: جنة عدن على التوحيد مع رفع التاء. وقرأ أبو مجلز، وأبو المتوكل

الناجى: جنة عدن على التوحيد مع نصب التاء. وقوله: { لِيَتَى وَعَدَّ الرَّحْمَنُ

وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ } أى: وعدهم بها، ولم يروها، فهى غائبة عنهم.

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا} فيه قولان.
أحدهما: آتياً، قال ابن قتيبة: وهو مفعول في معنى فاعل، وهو قليل أن يأتي
الفاعل على لفظ المفعول به.
وقال الفراء: إنما لم يقل: آتياً، لأن كل ما أتاك فأنت تأتیه؛ ألا ترى أنك تقول:
أتيت على خمسين سنة، وأتت علي خمسون.
والثاني: مبلوغاً إليه، قاله ابن الأنباري. وقال ابن جريج: وعده هاهنا: موعوده،
وهو الجنة، ومأتياً يأتيه أولياؤه.
قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًّا} فيه قولان.
أحدهما: أنه التخالف عند شرب الخمر، قاله مقاتل.
والثاني: ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه، قاله الزجاج. وقال ابن الأنباري: اللغو
في العربية: الفايصد المطرح.
قوله تعالى: {إِلَّا سَلَمًا} قال أبو عبيدة: السلام ليس من اللغو، والعرب
تستثني الشيء بعد الشيء وليس منه، وذلك أنها تضر في، فالمعنى: إلا أنها
يسمعون فيها سلاماً. وقال ابن الأنباري: استثني السلام من غير جنسه، وفي
ذلك توكيد للمعنى المقصود، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام، فليس
يسمعون لغواً البتة، وكذلك قوله: {فَأَنبَأَهُمُ عُودٌ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: 77] إذا لم يخرج من عداوتهم لي غير رب العالمين، فكلهم عدو.
وفي معنى هذا السلام قولان.
أحدهما: أنه تسليم الملائكة عليهم، قاله مقاتل.
والثاني: أنهم لا يسمعون إلا ما يسلمهم، ولا يسمعون ما يؤثمهم، قاله الزجاج.
قوله تعالى: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} قال المفسرون: ليس في
الجنة بكرة ولا عشية، ولكنهم يؤتون برزقهم - على مقدار ما كانوا يعرفون -
في الغداة والعشي. قال الحسن: كانت العرب لا تعرف شيئاً من العيش
أفضل من الغداء والعشاء، فذكر الله لهم ذلك. وقال قتادة: كانت العرب إذا
أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجب به، فأخبر الله أن لهم في الجنة رزقهم
بكرة وعشياً على قدر ذلك الوقت، وليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور.
وروى الوليد ابن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى: {بُكْرَةً
وَعَشِيًّا} فقال ليس في الجنة ليل ولا نهار، هم في نور أبداً، ولهم مقدار الليل
والنهار، يعرفون مقدار الليل بارخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار
النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.
قوله تعالى: {تِلْكَ لِحَنَّتُ} الإشارة إلى قوله: {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ لِحَنَّتُ} {

قوله تعالى: { تُورِثُ } وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والشعبي، وقتادة، وابن أبي عبلة: بفتح الواو وتشديد الراء. قال المفسرون: ومعنى نورث: نعطي المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا - للمؤمنين. ويجوز أن يكون معنى نورث: نعطي، فيكون كالميراث لهم من جهة أنها تمليك متسأنف. وقد شرحنا هذا في [الأعراف: 43] قوله تعالى: { وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } وقرأ ابن السميع وابن يعمر: وما ينزل بياء مفتوحة.

وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال. أحدها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أن الملك أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه، فقال: لعلي أبطأت، قال: قد فعلت، قال: وما لي لا أفعل، وأنتم لا تتسوكون، ولا تقصون أظفاركم، ولا تنقون براجمكم، فنزلت الآية قاله، مجاهد. قال ابن الأنباري: البراجم عند العرب: الفصوص التي في فصول ظهور الأصابع، تبدو إذا جمعت، وتغمض إذا بسطت. والرواجم: ما بين البراجم، بين كل برجمتين راجبة.

والثالث: أن جبريل احتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف، وذوي القرنين، والروح، فلم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب، فأبطأ عليه، فشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم مشقة شديدة، فلما نزل جبريل قال له أبطأت علي حتى ساء ظني، واشتقت إليك، فقال جبريل: إني كنت أشوق، ولكنني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة وقتادة والضحاك.

وفي سبب احتباس جبريل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولان. أحدهما: لامتناع أصحابه من كمال النظافة، كما ذكرنا في حديث مجاهد. والثاني: لأنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف، فقال: غداً أخبركم، ولم يقل: إن شاء الله؛ وقد سبق هذا في [سورة الكهف: 24]

وفي مقدار احتباسه عنه خمسة أقوال. أحدها: خمسة عشر يوماً؛ وقد ذكرناه في الكهف عن ابن عباس. والثاني: أربعون يوماً، قاله عكرمة، ومقاتل. والثالث: اثنتا عشرة ليلة، قاله مجاهد. والرابع: ثلاثة أيام، حكاه مقاتل.

والخامس: خمسة وعشرون يوماً الثعلبي. وقيل: إن سورة {الضحى} نزلت في هذا السبب. والمفسرون على أن قوله: وما تنزل إلا بأمر ربك قول جبريل. وحكى الماوردي: أنه قول أهل الجنة إذا دخلوها، فالمعنى: ما تنزل هذا الجنان إلا بأمر الله. وقيل: ما تنزل موضعاً من الجنة إلا بأمر الله. وفي قوله: {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا} قولان. أحدهما: ما بين أيدينا: الآخرة، وما خلفنا الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبیر، وقتادة، ومقاتل. والثاني: ما بين أيدينا: ما مضى من الدنيا، وما خلفنا: من الآخرة، فهو عكس الأول، قاله مجاهد. وقال الأخفش: ما بين أيدينا: قبل أن نخلق، وما خلفنا: بعد الفناء.

وفي قوله تعالى: {وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ} ثلاثة أقوال. أحدها: ما بين الدنيا والآخرة، قاله سعيد بن جبیر. والثاني: ما بين النفختين، قاله مجاهد، وعكرمة، وأبو العالية. والثالث: حين كوننا، قاله الأخفش. قال ابن الأنباري: وإنما وحد ذلك، والإشارة إلى شيئين.

أحدهما: ما بين أيدينا. والثاني: ما خلفنا، لأن العرب توقع ذلك على الاثنين والجمع. قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} النسي، بمعنى الناسي. وفي معنى الكلام قولان. أحدهما: ما كان تاركاً لك منذ أبطأ الوحي عنك، قاله ابن عباس. قال مقاتل: ما نسيك عند انقطاع الوحي عنك.

والثاني: أنه عالم بما كان ويكون لا ينسى شيئاً، قاله الزجاج. قوله تعالى: {وَعَبْدُهُ} أي: وحده، لأن عبادته بالشرك ليست عبادة، {وَطُطِبِرُ لِعِبَادَتِهِ} أي: اصبر على توحيده؛ وقيل: على أمره ونهيه. قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} روى هارون عن أبي عمرو أنه كان يدغم هل تعلم، ووجهه أن سيبويه يجيز إدغام اللام في التاء والتاء والذال والزاي والسين والصاد والطاء، لأن آخر مخرج من اللام وقريب من مخرجهن. قال أبو عبيدة: إذا كان بعد هل تاء، ففيه لغتان، بعضهم يبين لام هل، وبعضهم يدغمها.

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال. أحدها: مثلاً وشبهاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبیر، ومجاهد، وقتادة.

والثاني: هل تعلم أحدا يسمى الله غيره، رواه عطاء عن ابن عباس.
والثالث: هل تعلم أحدا يستحق أن يقال له: خالق وقادر، الا هو، قاله الزجاج.
{ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا * أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَاهُ
مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا * قَوْرَبَكَ لَتَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ
جَهَنَّمَ حَيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ
أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ تَقَوَّاءُ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا }
قوله تعالى: { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ } سبب نزولها إن أبي بن خلف أخذ عظاما بالياً،

فجعل يفته بيده وبذريه في الريح ويقول: زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن
نكون مثل هذا العظم البالي، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.
وروى عطاء عن ابن عباس: أنه الوليد بن المغيرة.

قوله تعالى: { لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا } إن قيل: ظاهره ظاهر سؤال، فأين جوابه؟
فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري.

أحدها: أن ظاهر الكلام استفهام، ومعناه معنى جحد وإنكار، تلخيصه: لست
مبعوثاً بعد الموت.

والثاني: أنه لما استفهم بهذا الكلام عن البعث، أجابه الله عز وجل بقوله:
{ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ }، فهو مشتمل على معنى: نعم، وأنت مبعوث.

والثالث: أن جواب سؤال هذا الكافر في [يس: 78] عند قوله تعالى:
{ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا }، ولا ينكر بعد الجواب، لأن القرآن كله بمنزلة الرسالة
الواحدة، والسورتان مكيتان.

قوله تعالى: { أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ } قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة،
والكسائي: بفتح الذال مشددة الكاف. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: يذکر،
ساكنة الذال خفيفة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل الناجي: أولا يتذكر
الإنسان بياء وتاء. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي،
والحسن: يذکر بياء من غير تاء ساكنة الذال مخففة مرفوعة الكاف، والمعنى:
أولا يتذكر هذا الجاحد أول خلقه، فيستدل بالابتداء على الإعادة؟ { قَوْرَبَكَ
لَتَحْشُرَنَّهُمْ } يعني: المكذبين بالبعث { وَالشَّيَاطِينَ } أي: مع الشياطين،
وذلك أن كل كافر يحشر مع شيطانه في سلسلة،

{ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ } قال مقاتل: أي: في جهنم، وذلك أن حول
الشيء يجوز أن يكون داخله، تقول: جلس القوم حول البيت: إذا جلسوا داخله
مطيفين به. وقيل يجثون حولها قبل أن يدخلوها.

فأما قوله: { جِثِيًّا } فقال الزجاج: هو جمع جاث، مثل قاعد وقعود، وهو منصوب على الحال، والاصل ضم الجيم، وجاء كسرهما إتباعاً لكسرة الثاء. وللمفسرين في معناه خمسة أقوال. أحدها: قعوداً، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: جماعات جماعات، روي عن ابن عباس أيضاً. فعلى هذا هو جمع جثوة وهي المجموع من التراب والحجارة. والثالث: جثيا على الركب، قاله الحسن، ومجاهد، والزجاج. والرابع: قياما، قاله أبو مالك.

والخامس: قياما على ركبهم، قاله السدي، وذلك لضيق المكان بهم. قوله تعالى: { لَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ } أي: لناخذن من كل فرقة وأمة وأهل دين { أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا } أي: أعظمهم له معصية، والمعنى: أنه يبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى، وبالأكابر جرماً، والرؤوس القادة في الشر. قال الزجاج: وفي رفع أيهم ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه على الاستئناف، ولم تعمل لنزعن شيئاً، هذا قول يونس. والثاني: أنه على معنى الذي يقال لهم: أيهم أشد على الرحمن عتياً؟ قاله الخليل، واختاره الزجاج، وقال: التأويل لنزعن الذي من أجل عتوه يقال: أي هؤلاء أشد عتياً؟ وأنشد:

ولقد أبيت عن الفتاة بمنزلٍ فأبيت لآحرج ولا محروم

المعنى: أبيت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حرج ولا محروم.

والثالث: أن أيهم مبنية على الضم، لأنه خالفت أخواتها، فالمعنى: أيهم هو أفضل. وبيان خلافها لأخواتها أنك تقول: اضرب أيهم أفضل، ولا يحسن: اضرب من أفضل، حتى تقول من هو أفضل، ولا يحسن: كل ما أطيب، حتى تقول: ما هو أطيب، ولا خذ ما أفضل، حتى تقول: الذي هو أفضل، فلما خالفت ما و من و الذي بنيت على الضم، قاله سيبويه.

قوله تعالى: { هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا } يعني: أن الأولى بها صلياً الذين هم أشد عتياً، فيبتدأ بهم قبل أتباعهم. وصلياً: منصوب على التفسير، يقال: صلي النار يصلها: إذا دخلها وقاسى حرها.

قوله تعالى: { وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } في الكلام إضمار تقديره: وما منكم أحد إلا وهو واردها.

وفيمن عني بهذا الخطاب قولان.

أحدهما: أنه عام في حق المؤمن والكافر، هذا قول الأكثرين. وروي عن ابن عباس أنه قال: هذه الآية للكفار. وأكثر الروايات عنه كالقول الأول. قال ابن

الأنباري: ووجه هذا أنه لما قال: لنحضرنهم وقال: أيهم أشد على الرحمن عتياً كان التقدير: وإن منهم، فأبدلت الكاف من الهاء، كما فعل في قوله: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً} [الانسان: 22] المعنى: كان لهم، لأنه مردود على قوله: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ} [الانسان: 21] وقال الشاعر:
شطت مزار العاشقين فأصبحت عسرا علي طلابك ابنة مخرم

أراد: طلابها. وفي هذا الورد خمسة أقوال.
أحدها: أنه الدخول. روى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الورد: الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار - أو قال: لجهنم - ضجيجاً من بردهم. وروي عن ابن عباس أنه سأل نافع بن الأزرق عن هذه الآية فقال له: أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر أخرجنا الله عز وجل منها، أم لا؟ فاحتج بقوله تعالى {فَأْوَرَدَهُمُ النَّارَ} [هود: 98] وبقوله تعالى: {أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الانبياء: 98]. وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول أنبت أني وارد، ولم أنبا أني صادر. وحكى الحسن البصري أن رجلاً قال لأخيه يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم؛ قال: فهل أتاك أنك خارج منها، قال: لا؛ قال: ففيم الضحك؟ وقال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قالوا: ألم يعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: بلى، ولكن مررتم بها وهي خامدة.
وممن ذهب إلى أنه الدخول: الحسن في رواية، وأبو مالك. وقد اعترض على أرباب هذا القول بأشياء. فقال الزجاج: العرب تقول: وردت بلد كذا، ووردت ماء كذا، إذا أشرفوا عليه وإن لم يدخلوا، ومنه قوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ} [القصص: 33] والحجة القاطعة في هذا القول قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَتَهَا} [الأنبياء: 101، 102] وقال زهير:
فلما وردن الماء زرقاً جماماً وضعن عصي الحاضر المتخيم

أي: لما بلغن الماء قمن عليه.

قلت: وقد أجاب بعضهم عن هذه الحجج، فقال: أما الآية الأولى، فإن موسى لما أقام حتى استقى الماء وسقى الغنم، كان بلبثه ومباشرتة كأنه دخل؛ وأما الآية الأخرى: فإنها تضمنت الإخبار عن أهل الجنة حين كونهم فيها، وحينئذ لا يسمعون حسيستها. وقد روينا أنفاً عن خالد بن معدان أنهم يمرون بها، ولا يعلمون.

والثاني: أن الورود: الممر عليها، قاله عبد الله بن مسعود، وقتادة. وقال ابن مسعود: يرد الناس النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشد الرحل، ثم كمشيته. والثالث: أن ورودها: حضورها، قاله عبيد بن عمير. والرابع: أن ورود المسلمين: المرور على الجسر، وورود المشركين: دخولها. قاله ابن زيد.

والخامس: أن ورود المؤمن إليها: ما يصيبه من الحمى في الدنيا، روي عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: وإن منكم إلا واردة فعلي هذا من حم من المسلمين، فقد وردتها. قوله تعالى: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ} يعني: الورود {حَتْمًا} والحتم: إيجاب القضاء، والقطع بالأمر. والمقضي: الذي قضاه الله تعالى، والمعنى: إنه حتم ذلك وقضاه على الخلق.

قوله تعالى: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا} وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، وابن عمر، وابن أبي ليلي، وعاصم الجحدري: ثم بفتح الثاء. وقرأ الكسائي، ويعقوب: ننجي مخففة. وقرأت عائشة، وأبو بحرية، وأبو الجوزاء الربيعي: ثم ينجي بياء مرفوعة قبل النون خفيفة الجيم مكسورة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وابن السميع، وأبو رجاء: ننحي بحاء غير معجمة مشددة. وهذه الآية يحتج بها القائلون بدخول جميع الخلق، لأن النجاة: تخلص الواقع في الشيء، ويؤكد قوله تعالى: {وَوَدَّرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا} ولم يقل: وندخلهم؛ وإنما يقال نذر وتترك لمن قد حصل في مكانه. ومن قال: إن الورود للكفار خاصة، قال: معنى هذا الكلام: نخرج المتقين من جملة من يدخل النار. والمراد بالمتقين: الذين اتقوا الشرك، وبالظالمين: الكفار. وقد سبق معنى قوله تعالى: {جِيئًا} [مريم: 68].

{وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ لَفْرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ تَدْيِيًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِعْيَا} قوله تعالى: {وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ} يعني: المشركين {ءَايَاتِنَا} يعني: القرآن {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يعني: مشركي قريش {لِلَّذِينَ ءَامَنُوا} أي: لفقراء المؤمنين {أَيُّ لَفْرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا} قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر، وحفص عن عاصم مقاماً بفتح الميم. وقرأ ابن كثير بضم الميم. قال أبو علي الفارسي: المقام: اسم المثوى، إن فتحت الميم أو ضمت.

قوله تعالى: { وَأَحْسَنُ تَدِيًّا } والندي والنادي: مجلس القوم ومجتمعهم. وقال الفراء: الندي والنادي، لغتان. ومعنى الكلام: أنحن خير، أم أنتم؟ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس، فأجابهم الله تعالى فقال: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ } وقد بينا معنى القرن في { الْأَنْعَامِ } وشرحنا الاثاث في [النحل: 80]. فأما قوله تعالى: { وَرِثِيًّا } فقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ورثياً بهمزة بين الراء والياء في وزن رعياء؛ قال الزجاج: ومعناها: منظرًا، من رأيت.

وقرأ نافع، وابن عامر: رياً بياء مشددة من غير همز، قال الزجاج: لها تفسيران. أحدهما: أنها بمعنى الأولى. والثاني: أنها من الري، فالمعنى منظرهم مرتوٍ من النعمة، كأن النعيم بين فيهم. وقرأ ابن عباس، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن أبي سريج عن الكسائي: رياً بالزاي المعجمة مع تشديد الياء من غير همز. قال الزجاج: ومعناها: حسن هيبتهم.

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ لِيُذِينَ هُتَدُوا هُدًى وَ لَبِقَيْتُ الصَّلِيحَتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا } قوله تعالى: { وَرِثِيًّا } { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ } أي: في الكفر والعمى عن التوحيد { فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ } قال الزجاج: وهذا لفظ أمر، ومعناه الخبر، والمعنى: أن الله تعالى جعل جزاء ضلالتة أن يتركه فيها، قال ابن الأنباري: خاطب الله العرب بلسانها، وهي تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر، يقول أحدهم: إن زارنا عبد الله فلنكرمه، يقصد التوكيد، وينبه على أني ألزم نفسي إكرامه؛ ويجوز أن تكون اللام لام الدعاء على معنى: قل يا محمد: من كان في الضلالة فاللهم مد له في النعم مداً. قال المفسرون: ومعنى مد الله تعالى له: إمهاله في الغي. { حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا } يعني الذين مدهم في الضلالة. وإنما أخبر عن الجماعة، لأن لفظ من يصلح للجماعة. ثم ذكر ما يوعدون فقال: { إِمَّا الْعَذَابَ } يعني: القتل، والأسر { وَإِمَّا السَّاعَةَ } يعني: القيامة وما وعدوا فيها من الخلود في النار { فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا } في الآخرة، أهم، أم المؤمنون؟ لأن مكان هؤلاء الجنة، ومكان هؤلاء النار، { وَ } يعلمون بالنصر والقتل { مَنْ أَضْعَفُ * جُنْدًا } جندهم، أم جند رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا رد عليهم في قولهم: { أَيُّ الْقَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ تَدِيًّا }. قوله تعالى: { وَيَزِيدُ اللَّهُ لِيُذِينَ هُتَدُوا هُدًى } فيه خمسة أقوال. أحدها: ويزيد الله الذين أمتدوا بالتوحيد إيماناً.

والثاني: يزيدهم بصيرة في دينهم.

والثالث: يزيدهم بزيادة الوحي إيماناً، فكلما نزلت سورة زاد إيمانهم.

والرابع: يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ.

والخامس: يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ. قال الزجاج: المعنى: إن الله تعالى يجعل جزاءهم أن يزيدهم يقيناً، كما جعل جزاء الكافر أن يمدّه في ضلّالته.

قوله تعالى: { وَ لَبِقِيَاتُ الصّٰلِحٰتِ } قد ذكرناها في [سورة الكهف: 46].

قوله تعالى: { وَخَيْرٌ مَّرَدًّا } المراد هاهنا مصدر مثل الرد، والمعنى: وخير رداً

للثواب عليّ عامليها، فليست كأعمال الكفار التي خسرروها فبطلت.

{ أَفَرَأَيْتَ لِيذِي كَفَرًا بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ لُبُغَيْبٍ أَمْ لِيُحَدِّدَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا }

قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي كَفَرًا بِآيَاتِنَا } في سبب نزولها قولان.

أحدهما: ما روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث مسروق عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً أي: حداداً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته الأصح أنقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت، ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك، فنزلت فيه هذه الآية، إلى قوله تعالى: { فَرْدًا }.

والثاني: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وهذا مروى عن الحسن.

والمفسرون على الأول.

قوله تعالى: { لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا } قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم،

وابن عامر: بفتح الواو. وقرأ حمزة، والكسائي: بضم الواو، وقال الفراء: وهما لغتان، كالعدم، والعدم، وليس يجمع، وقيس تجعل الولد جمعاً، والولد، بفتح الواو، واحداً.

وأين زعم هذا الكافر أن يؤتى المال والولد؟ فيه قولان.

أحدهما: أنه أراد في الجنة عليّ زعمكم.

والثاني: في الدنيا. قال ابن الأنباري: وتقدير الآية: أرايته مصيباً؟

قوله تعالى: { أَطَّلَعَ لُبُغَيْبٍ } قال ابن عباس في رواية: أعلم ما غاب عنه حتى

يعلم أفي الجنة هو، أم لا؟ وقال في رواية أخرى: أنظر في اللوح المحفوظ؟

قوله تعالى: { أَمْ لِيُحَدِّدَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا } فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أم قال: لا إله إلا الله، فأرحمه بها؟ قاله ابن عباس.

والثاني: أم قدم عملاً صالحاً، فهو يرجوه؟ قاله قتادة.
والثالث: أم عهد إليه أنه يدخله الجنة؟ قاله ابن السائب.
قوله تعالى: {كَلَّا} أي: ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتى المال والولد.
ويجوز أن يكون معنى كلا أي: إنه لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الله عهداً.
{سَتَكْتُبُ مَا يَقُولُ} أي: سنأمر الحفظة بإثبات قوله عليه لنجازه به، {وَتَمُدُّ
لَهُ مِنْ لَعْدَابٍ مَدًّا} أي: نجعل بعض العذاب على إثر بعض.
وقرأ أبو العالية الرياحي، وأبو رجاء العطاردي: سيكتب ويرثه بياء مفتوحة.
قوله تعالى: {وَوَثَّرْتُهُ مَا يَقُولُ} فيه قولان.
أحدهما: نرثه ما يقول انه له في الجنة، فنجعله لغيره من المسلمين، قاله أبو
صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء.

والثاني: نرث ما عنده من المال، والولد، بإهلاكنا إياه، وإبطال ملكه، وهو
مروي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قتادة. قال الزجاج: المعنى: سنسلبه
المال والولد، ونجعله لغيره.

قوله تعالى: {وَيَاتِينَا فَرْدًا} أي: بلا مال ولا ولد.
{وَلْيَحْذَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوْرَهُمْ آرَاءَ *
فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا

قوله تعالى: {وَلْيَحْذَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً} يعني: المشركين عابدي الأصنام
{لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} قال الفراء: ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة.

قوله تعالى: {كَلَّا} أي: ليس الأمر كما قدروا، {سَيَكْفُرُونَ} يعني الأصنام
بجحد عبادة المشركين، كقوله تعالى: {مَا كَانُوا إِتَابًا يَعْبُدُونَ} [القصص: 63]
لأنها كانت جماداً لا تعقل العبادة، {وَيَكُونُونَ} يعني: الأصنام {عَلَيْهِمْ} يعني:
المشركين {ضِدًّا} أي: أعوانا عليهم في القيامة، يكذبونهم ويلعنونهم.
قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ} قال الزجاج: في معنى هذا
الإرسال وجهان.

أحدهما: خلينا بين الشياطين وبين الكافرين فلم نعصمهم من القبول منهم.
والثاني: وهو المختار: سلطانهم عليهم، وقيضناهم لهم بكفرهم. {تَوْرَهُمْ آرَاءَ}
{أي: تزعمهم ازعاجاً حتى يركبوا المعاصي. وقال الفراء: تزعمهم الى
المعاصي، وتغريهم بها، قال ابن فارس: يقال: أزه على كذا: إذا أغراه به،
وأزت القدر: غلت.

قوله تعالى: { فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ } أي: لا تعجل بطلب عذابهم. وزعم بعضهم أن هذا منسوخ بآية السيف، وليس بصحيح، { إِنَّمَا تَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا } في هذا المعدود ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه أنفاسم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال طاووس، ومقاتل.

والثاني: الأيام، والليالي، والشهور، والسنون، والساعات، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنها أعمالهم، قاله قطرب.

{ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًا * وَتَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا }

قوله تعالى: { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ } قال بعضهم: هذا متعلق بقوله: ويكونون عليهم ضداً، يوم نحشر المتقين وقال بعضهم: تقديره: اذكر لهم يوم نحشر المتقين، وهم الذين اتقوا الله بطاعته واجتناب معصيته. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: يوم يحشر بياء مفتوحة ورفع الشين ويسوق بياء مفتوحة ورفع السين. وقرأ أبي بن كعب، والحسن البصري، ومعاذ القاري، وأبو المتوكل الناجي: يوم يحشر بياء مرفوعة وفتح الشين المتقون رفعا ويساق بألف وياء مرفوعة المجرمون بالواو على الرفع. والوفد: جمع وافد، مثل: ركب، وراكب، وصحب، وصاحب. قال ابن عباس، وعكرمة، والفراء: الوفد: الركبان قال ابن الأنباري: الركبان عند العرب: ركاب الإبل. وفي زمان هذا الحشر قولان.

أحدهما: أنه من قبورهم إلى الرحمن، قاله علي بن أبي طالب.

والثاني: أنه بعد الحساب، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: { وَتَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ } يعني: الكافرين { إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا } قال ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن: عطاشا. قال أبو عبيدة: الورد: مصدر الورد. وقال ابن قتيبة: الورد: جماعة يردون الماء، يعني: أنهم عطاش، لأنه لا يرد الماء إلا العطشان. وقال ابن الأنباري: معنى قوله ورداً: واردين.

قوله تعالى: { لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ } أي: لا يشفعون ولا يشفع لهم.

قوله تعالى: { إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } قال الزجاج: جائز أن يكون من في موضع رفع على البدل من الواو والنون، فيكون المعنى: لا يملك

الشفاعة إلا من اتخذ عن الرحمن عهداً؛ وجائز أن يكون في موضع نصب على استثناء ليس من الأول، فالمعنى: لا يملك الشفاعة المجرمون، ثم قال: إلا

على معنى لكن { مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } فإنه يملك الشفاعة. والعهد

هاهنا: توحيد الله والإيمان به. وقال ابن الأنباري: تفسير العهد في اللغة: تقدمه أمر يعلم ويحفظ، من قولك: عهدت فلانا في المكان، أي: عرفته، وشهدته.

{ وَقَالُوا لَنَحْذَرُ الرَّحْمَنَ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا } {

قوله تعالى: { وَقَالُوا لَنَحْذَرُ الرَّحْمَنَ وَلَدًا } يعني: اليهود، والنصارى، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله { لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا } أي: شيئاً عظيماً من الكفر. قال أبو عبيدة: الإد، والنكر: الأمر المتناهي العظم. قوله تعالى: { تَكَادُ * السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ * يَتَّقَطُرْنَ } قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: تكاد بالتاء. وقرأ نافع، والكسائي: يكاد بالياء. وقرأ جميعاً: يتفطرن بالياء والتاء مشددة الطاء، وافقهما ابن كثير، وحفص عن عاصم في يتفطرن وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم ينفطرن بالنون. وقرأ حمزة، وابن عامر في { مَرِيَمَ } مثل أبي عمرو، وفي { عَسَقُ } مثل ابن كثير. ومعنى يتفطرن منه: يقاربن الانشقاق من قولكم. قال ابن قتيبة: وقوله تعالى: هداً أي: سقوطاً.

قوله تعالى: { أَنْ دَعَوْا } قال الفراء: من أن دعوا، ولأن دعوا. وقال أبو عبيدة: معناه: أن جعلوا، وليس هو من دعاء الصوت، وأنشد:

ألا رب من تدعو نصيحاً وإن تغب تجده بغيب غير منتصح الصدر

قوله تعالى: { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } أي: ما يصلح له، ولا يليق به اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي مجانسة، وكل متخذ ولداً يتخذ من جنسه، والله تعالى منزه عن أن يجانس شيئاً، أو يجانسه، فمجال في حقه اتخاذ الولد، { إِنْ كُلُّ * مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ } يوم القيامة { عَبْدًا } ذليلاً خاضعاً. والمعنى: أن عيسى وعزيراً والملائكة عبید له قال القاضي أبو يعلى وفي هذا دلالة على أن الوالد إذا اشترى ولده، لم يبق ملكه عليه، وإنما يعتق بنفس الشراء، لأن الله تعالى نفى البنوة لأجل العبودية، فدل على أنه لا يجتمع بنوة ورق.

قوله تعالى: { لَقَدْ أَحْصَاهُمْ } أي: علم عددهم { وَعَدَّهُمْ عَدًّا } فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم مع كثرتهم { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا } بلا مال ولا نصير يمنعه.

فان قيل: لأية علة وحد في الرحمن وآتية وجمع في العائد في أحصاهم،
وعدهم.

فالجواب: أن لكل لفظ توحيد، وتأويل جمع، فالتوحيد محمول على اللفظ،
والجمع مصروف إلى التأويل.

{إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا
يَسَّرَتْهُ لِبِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ لِمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ
قَرْنٍ هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا {

قوله تعالى: {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} قال ابن عباس: نزلت في علي

عليه السلام وقال معناه: يحبهم ويحبهم ويحبهم إلى المؤمنين. قال قتادة:
يجعل لهم وداً في قلوب المؤمنين. ومن هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال: إذا أحب الله عبداً قال: يا جبريل، إني أحب فلاناً
فأحبه، فينادي جبريل في السموات: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيلقى حبه
على أهل الأرض فيحب، وذكر في البغض مثل ذلك. وقال هرم بن حيان: ما
أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل، إلا أقبل الله عز وجل بقلوب أهل الإيمان
إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم.

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرَتْهُ لِبِسَانِكَ} يعني: القرآن. قال ابن قتيبة: أي،

سهلناه، وأنزلناه بلغتك. واللد جمع ألد، وهو الخصم الجدل.

قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ} هذا تخويف لكفار مكة {هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ مِّنْ

أَحَدٍ} قال الزجاج: أي: هل ترى، يقال: هل أحسست صاحبك، أي: هل رأيته؟

والركز: الصوت؛ الخفي وقال ابن قتيبة: الصوت الذي لا يفهم، وقال أبو

صالح: حركة، والله تعالى أعلم.